١ – الشعوبية من منظور الدكتورة زاهية قدورة

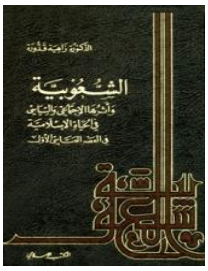

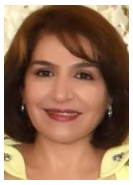

بقلم: الدكتورة إيمان مرداس
باحثة في التاريخ الحديث والمعاصر
iman.merdass@gmail.com

من خلال كتابها "الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول".

مقدمة:

عملت الدولة الإسلامية على تحرير البلاد العربية من النفوذ البيزنطي والفارسي، فأقبل الناس على اعتناق الدين الجديد أفواجًا من مختلف الأجناس والألوان، منهم من أخذ على عاتقه حمل راية الإسلام والعمل على صيانته فأجادوا وأفادوا، ومنهم من أخفوا دينهم القديم بين ثنايا ضلوعهم يدعون إليه سرًا، ومنهم من انصطدم بتأصل العصبية القومية ما نتج عنه حركات مقاومة عنيفة عرفت بالشعوبية.

تناول الباحثون الحركة الشعوبية من منظارين مختلفين، الأول: باحثون متعصبون لم يلتزموا بالبحث العلمي الموضوعي متجاهلين الظروف التاريخية التي ساهمت في ظهور هذه الحركة، موزعين التّهم وإصدار الأحكام القاسية حول الشعوبية، والثاني: باحثون درسوا الشعوبية من الناحية التاريخية كونها كانت حركة اجتماعية تصحيحية عُرفت بالتسوية ثم تحولت فيما بعد إلى حركة تحريفية سياسية، وبعض هذه الدراسات كانت وصفية تسرد الأحداث مركزة على الدور السياسي لهذه الحركة دون التعليل والتحليل، وبعضها الآخر ركز على دور الشعوبية في حركة الأدب والشعر العربي، بينما طرحت الدكتورة زاهية قدورة الموضوع من منطلق قضية الصراع القومي بين العرب وغير العرب بطريقة موضوعية بعيدة كل البعد عن التعصب الأعمى، وعملت على استقصاء صحة المعلومات لتخرج بالبرهان والدليل إلى أهواء تلك الحركة ومراميها وغاياتها.

حاولت الباحثة تحليل الأسباب التي دفعت الشعوبية إلى الوجود علها تجد مبررًا لبعض أعمال الموالي، وأحاطت بالمناخ النفسي والفكري والاقتصادي لهذه الحركة، ووجدت أن الشعور بالقومية لا يبلغ نضجه إلا إذا أحست الشعوب بالاختلاف والفروقات، فالشعوبية لم يكن بإمكانها أن تنشأ وتصبح حركة لها أثرها وتأثيرها في الدولة الإسلامية لولا إدراك الموالي اختلافهم عن سواهم من الشعوب العربية. على ضوء ذلك رأت الباحثة أن الشعبين المتصارعين آنذاك العرب والفرس سجلوا نهضة قومية أصبحت فيما بعد مدرسة سياسية لها أنصارها ونظمها ورجالاتها.

وفي هذا المقال سأسلط الضوء على الشعوبية من منظور الدكتورة زاهية قدورة من خلال كتابها "الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول".

تعريف الشعوبية ونشأتها:

حاول بعض المؤرخين تحديد البدايات الأولى لنشأة الشعوبية، لكنهم لم يستقروا على تاريخ معين، منهم من اعتبر أن جذور الشعوبية الحقيقية تعود إلى عصر الخلفاء الراشدين، ومنهم من أعاد ظهورها إلى العصر الأموي حيث دعت بعض الشعوب

الأجنبية إلى مساواة الشعوب الأخرى بالعرب في الإدارة والمجتمع، واشتدت وقويت في العصر العباسي مع استخدام الخلفاء العباسيين الموالي في شؤون الحكم وإسناد العديد من المسؤوليات إليهم، ولا سيما الخلفاء الذين كانت أمهاتهم فارسيات كالمأمون والمعتصم وغيرهم، ويختصر كاشف الغطاء كل تلك الآراء قائلًا أن[1]:" الشعوبية لم تكن وليدة العصر العباسي، وإنما وليدة الوقت الذي شعرت به العناصر المغلوبة على أمرها بفقدان سلطتها وعزها".

والشعوبية حركة اجتماعية قومية، ولفظ "شعوبية" مأخوذ من الشعوب[2]:"جمع شعب، وهو ما تشعب من قبائل العرب والعجم، وكل جيل شعب، حتى غلبت الشعوب بلفظ الجمع على العجم، حتى قيل لمحتقر العرب شعوبي، أو فرقة لا تفضل العرب على العجم"، أما المفكر الإيراني علي شريعتي فقد اعتبرها[3]: حركة تسوية بين الشعوب لكنها تحولت تدريجيًا إلى حركة تفضيل العجم على العرب". بينما آخرون حددوها بأنّها حركة ثقافية حضارية نشأت بسبب تنوع الأعراق في الدولة الإسلامية، وتمثلت في سعي كل عرق أن يحقق نوعًا من الأفضلية على غيره.

جاء تعريف الدكتورة زاهية قدورة في مقدمة كتابها "الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي" مماثلًا للتعريفات السابقة، وذكرت[4]: "إنَّ الشعوبية كلمة مشتقة من كلمة شعوب ومفردها شعب، ولهذه الكلمة ثلاثة معاني، المعنى الأول يُفيد ما تشعب من قبائل العرب والعجم، المعنى الثاني يُقصد به العرب وحدهم، والثالث وهو الأكثر شيوعًا ويطلق على غير العرب أي العجم".

وتوصلت الباحثة إلى أن الشعوبية حركة تعصب كل شعب لقوميته وحضارته ضد العرب، أي أنها ليست مقتصرة على فئة أو طبقة اجتماعية معينة، بل تُمثل جميع فئات الموالي الذين بذلوا الجهد لزعزعة السلطان العربي،وإنها فكرة سياسية أدبية اتخذت الدين ستارًا لها ونشأت عنها حركات بعضها أدبية، وبعضها دينية، وبعضها ثورية، كما أنها لم تتخذ صورة المذهب ولم يكن لها طابع منتظم وإنما كانت آراء وحركات متفرقة متناثرة[1].

قسمت الدكتورة زاهية قدورة الشعوبية إلى قسمين: الأول هاجم العرب دون التعرض للإسلام بأذى، والثاني هاجم العرب ودينهم الجديد. وفي الوقت نفسه، سلطت الباحثة الضوء على عظمة الموالي خاصة الفرس منهم، وأظهرت قيمهم الحضارية والثقافية والعلمية، وحاولت تحليل أسباب قيام الحركة الشعوبية علها تجد مبررًا لبعض أعمالهم، ووصلت إلى نتيجة مفادها أن هذه الحركة هُيّئت لها أرض خصبة لتفاعلها وانتشارها، وأنها وليدة أسباب متعددة تفاعلت مع بعضها إثر قيام الدولة الإسلامية وازدهارها أدى إلى تضخم النزعات القومية الاستقلالية وتأصلها في نفوس العرب والبلاد المفتوحة، بالإضافة إلى العوامل الاقتصادية والدور السياسي الذي قام به بعض الخلفاء خاصة الأمويين إبان حكمهم.

الشعوبية في عصر الخلفاء الراشدين:

تتبعت الدكتورة زاهية قدورة العلاقة بين العرب والفرس في الجاهلية وعصر صدر الإسلام، وأكدت أن الطرفين كانا على اتصال ودي ومباشر في كثير من الأحيان بالرغم من اعتزاز العرب بالنعرة القبائلية وافتخار الفرس برقي حضارتهم، وقد عللت الجوار الجغرافي والروابط الاقتصادية المشتركة. استمرت العلاقة طيبة لا يشوبها حقد أو تصادم في صدر الإسلام، فالعصبية الدينية

---

(1) صباح الموسوي: **الشعوبية في أدبيات الحوزة الدينية وأدبيات القيادة الإيرانية**، د.ن، القاهرة، ٢٠١٣م، ص ١٦، نقلًا عن كاشف الغطاء: **الشعوبية في التاريخ**.

(2)ابن منظور: **لسان العرب**، دار المعارف، مصر، ج٤، د.ت، صفحة ٢٢٧٠. انظر أيضا: علي بو ملحم: **المناحي الفلسفية عند الجاحظ**، دار لطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م، ص ٤١.

(3)د. علي شريعتي: **التشيع العلوي والتشيع الصفوي**، ترجمة حيدر مجيد، تقديم د. إبراهيم دسوقي شتا، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م. ص ١٢١.

(4)د. زاهية قدورة: **الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ص ٩.

(1)د. زاهية قدورة: **الشعوبية**، ص ٩ و ٣٧.

الإسلامية كانت جامعة مانعة في هذا العهد، فقد ساوى الدين الجديد بينهما مساواة تامة، كما أنّه لم يكن قد أسلم الكثير من الأعاجم حتى يظهر الفرق واضحًا بينهم وبين العرب[2].

وتذكر الدكتورة زاهية قدورة أن هذا الوئام لم يدم طويلًا، فقد انقلبت الآية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وتغيرت نظرة الشعوب وأصبحت دعوة إلى الاستعلاء القومي ودعاية تتجه نحو التقليل من مكانة العرب باعتبارهم الحكام الجدد النافذين، وذلك عندما سجلت الفتوحات الإسلامية انتصار العرب على الأمم الأخرى كالفرس والروم، وأصبح العرب يمثلون الفئة الحاكمة، فاتجهت الموالي ضدهم ليبينوا أنهم ليسوا أفضل من سائر الشعوب، فقد كانوا يشعرون أن الخضوع للدين الجديد هو في حقيقة الأمر خضوع للعرب وليس للإسلام. لذا اعتبرت الدكتورة زاهية أن حادثة اغتيال الخليفة عمر بن الخطاب على يد أبو لؤلؤة الجوسي باعثًا من بواعث الشعوبية فيما بعد[1]، وعلقت قائلة[2]: إن رفض عمر تخفيض خراج أبي لؤلؤة ليس سببًا كافيًا لإثارة حقد هذا الغلام حتى يقتل الخليفة، وإنما وراء الحادثة حقدًا سياسيًا من قبل الفرس"، ويعود هذا الحقد حسب اعتقاد الدكتورة قدورة إلى أن الخليفة عمر فتح بلاد فارس وقهر رجالها من جهة، ومناداته بالأرستقراطية الإسلامية أي إبعاد العنصر العربي عن تأثيرات العناصر الأخرى من جهة أخرى، مما سبب لهم شعورًا بالنقص والإزدراء[3].

تبرر الدكتورة قدورة سياسة الخليفة عمر بن الخطاب قائلة[4]:"إنّ الدين لم يكن قد تمكن من نفوس من اعتنقه من الفرس، فلم يكن في وسع عمر الاطمئنان إلى إسلامهم خاصة أن في عهده انتشرت الفتوحات، لكن التاريخ ينقض هذه الفكرة، لأنّ الفاروق كان يُفضل صهيب الرومي وبلال الحبشي وأبا حذيفة وغيرهم على الكثير من الصحابة مهاجرين كانوا أو أنصار[5]، كما أنها لم تذكر أن عمر بن الخطاب قد أمد الذين دخلوا الإسلام حديثًا بالعلماء لتلقينهم مبادئ العقيدة والشعائر الدينية[6]، ولم تتطرق الباحثة إلى حسن معاملة الفاروق وإعفائه غير القادرين من الموالي على دفع الجزية، ولا إلى معاهدات الصلح والأمان التي أعطاها لأهل البلاد المفتوحة كمعاهدة إيليا، ومعاهدة أهل مصر، ومعاهدة أذربيجان وغيرها[7].

كما أنها لم تأتِ الدكتورة زاهية قدورة على ذكر أحوال الموالي في عهد الخليفة عثمان بن عفان والخليفة علي بن أبي طالب، ولا إلى أول ظهور حركي للموالي حين تلقفوا دعوة أبو عبيد بن مسعود الثقفي للمطالبة بدم الحسين[8]، ربما لأنها اعتبرت أن الشعوبية ظهرت بوضوح في العصر الأموي عندما حاول بنو أمية إلغاء أسس المساواة والعدالة التي أقرها الإسلام.

الشعوبية في العصر الأموي:

ذكرت الدكتورة زاهية قدورة أنَّ[1]:" الشعوبية بدأت بمعناها الصحيح في العصر الأموي، فحاول الأمويون جهدهم أن يخففوا من حدتها، فلما أخفقوا حاولوا القضاء عليها، فكان ذلك سببًا لتسربها في مسارب خفية". وأشارت قدوّرة إلى أن خلفاء بني أمية لم

---

(2) المرجع نفسه، ص ١٠.

(1) د. زاهية قدورة: **الشعوبية**، ص ص ٤١.

(2) المرجع نسه: ص ٤٠.

(3)المرجع نفسه: ص ٣٩.

(4) المرجع نفسه: ص ٤١.

(5)د. عرفات كرم ستوني: **مراجعة نقدية لبعض الدراسات التي تناولت الشعوبية**، ٢٠١٠م، ص ٧، نقلًا عن ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٣/٣٥٥.

(6) توماس أرنولد: **الدعوة إلى الإسلام**، ترجمة حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٧٠م، ص ٦٩.

(7) د. عماد علي عبد السميع حسين: **الموالي ودورهم في الدعوة لله تعالى**، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١٣٠ وما يليها.

(8) محمد الفيصل: **الحلقة المفقودة والدين المخطوف التساؤلات المحرمة في التاريخين العربي والإسلامي**، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، ط١، ٢٠١٨م، ص ٢٨٤.

(1) زاهية قدورة: **الشعوبية**، ص ٦.

يأمنوا جانب الموالي قط باستثناء الخليفة عمر بن عبد العزيز، وأن الموالي لم يشعروا بامتزاجهم مع الدولة الأموية مما أثار حفيظتهم وحقدهم وأخذوا يترقبون الفرص للانقضاض على عهدهم، ولاحظت أن شعور العداء والكراهية كان متفشي بين الموالي والعرب ضد الدولة الأموية على حدٍّ سواء، ودليلها على ذلك أن زعماء الثورات التي قامت ضد بني أمية كانوا أغلبيتهم من العرب، باستثناء ثورة أبو علي الكوفي وثورة ابن سريج اللتان مثلتا غضب الموالي على الحكم الأموي، لكن العنصر الفارسي كان مؤيدًا ومشجعًا ومشاركًا في كافة الثورات[2].

هذا التصوير من قبل الباحثة يُمكن أن يوصف كفاحًا من أجل المساواة والعدل ووقف التمييز القومي، والفساد السياسي للسلطة الحاكمة وابتعاد الحاكم عن أوامر الشرع الحنيف، مما خلق فجوة بين رجال الدولة وعامة الناس ساعدت الشعوبية على الظهور والانتشار.إلا أن هناك بعض المصادر الّتي ترفض تصوير خلفاء العصر الأموي على أنهم قياصرة وأكاسرة في زي عربي في معاملتهم للموالي، وفي هذا الصدد يذكر د. عماد علي عبد السميع حسين[3]:"لقد كانت السياسة الأموي حريصة على أن يأخذ كل ذي حق حقه، كجانب سياسي لكسب الأصوات من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن معظم الخلفاء الأمويين نشأوا نشأة دينية تحتم عليهم المعاملة الطيبة، والدليل على ذلك إقبال أهل البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام طواعية".

الشعوبية في العصر العباسي الأول:

حاول الموالي تأمين حقوقهم وإثبات للعرب أنهم ليسوا أقل منهم جدارة، وأنهم أهل للمساواة التي نزل بها القرآن ودعا إليها الرسول عليه الصلاة والسلام، لكنهم لم يستطيعوا الظفر بكل ما يتطلعون إليه إلى أن جاءت الدعوة العباسية، وفي هذا الصدد تذكر الدكتورة زاهية قدورة أنّ[4]: "الدولة العباسية لم تكن لتقوم لها قائمة لولا تحمس الموالي واندفاعهم في تأييدها والاشتراك فيها، وتابعت تقول:" من الأسباب التي ساعدت على انتشار الدعوة العباسية في خرسان، هو أنّ العرب في هذه البلاد كانوا أقرب إلى الفرس"، ويؤكد ذلك المسعودي قائلًا أنّ[1]: الدولة العباسية اصطبغت بالصبغة الفارسية لذلك قيل عنها أنها دولة خرسانية شرقية".

إن مساهمة الموالي في نشر الدعوة العباسية قربهم من الخلفاء، وضعهم في المراكز الحساسة وأصبحوا ذوي شأن عظيم فاستطاعوا الجهر بعدائهم للعرب، وفي هذا الصدد تذكر الدكتورة زاهية قدورة[2]:" في هذا الجو المتسامح استطاع الأعاجم أن يفخروا على العرب، ويحقروا من شأنهم، وبدأت بين رجال الفكر حركة من المناظرات كل يدافع عن وجهة نظره"، وقد طالت السجالات التي تفاعلت وامتزجت حينًا وتنافرت حينًا آخر مجالات الحياة كافة، وأظهرت الفرق الواضح بين العرب والفرس[3]. وتطرقت إلى المراحل التي أفرزتها هذه السجالات، التي توزعت على ثلاث طوائف هي: أهل التسوية الذين ساووا بين العرب والعجم، وجماعة المتعصبين للعجم الذين رأوا فضلًا للأعاجم على العرب، وطائفة للمتعصبين العرب التي حملت لواء الدفاع عن العرب من خلال الحركة الفكرية.

---

(2)المرجع نفسه: ص ٦٠

(3) د. عماد علي عبد السميع حسين: **الموالي ودورهم في الدعوة لله تعالى**، مرجع سابق، ص ١٣٣.

(4)زاهية قدورة : **الشعوبية**، ص ٦٥.و٦٧

(1)المسعودي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، دار العامرة، مصر، دت، ٢٤٢/٤.

(2)زاهية قدورة: **الشعوبية** ، ص ٨٥

(3)المرجع نفسه: ص١٧٨.

رصدت الدكتورة زاهية قدورة التطرف القومي بين الموالي والعرب، ومحاولات الشعوبيين الاختراق الثقافي، والقضاء على مفاخر العرب،وأوضحت أطماع العناصر الفارسية في الوصول إلى المراكز الحساسة، وبسط سيطرتهم على الشعر والأدب والعادات والتقاليد العربية، وعلى الحياة السياسية والاجتماعية، فقد كانوا أصحاب أقلام مؤثرة وعقول جبارة، منهم الكتاب والأمراء والوزراء، حركتهم الضغائن والأحقاد على العرب الذين فتحوا بلادهم، فالصراع مع الشعوبين كان صراعًا لتقرير مصير الثقافة العربية الإسلامية بما أفرزته من قيم، ويعبر عن ذلك هاملتون جب[4]: "تأصل النزاع بين التراثين العربي والفارسي حتى مسّ الجذور، فلم يكن في جوهر النزاع مسألة سطحية تتناول الأساليب والأشكال الأدبية، إنما كان جوهره يتناول الوجهة الثقافية للمجتمع الإسلامي برمته".

وقد بينت الباحثة إدراك العرب خطورة هذه الحركة على كيان الدولة الإسلامية التي كانت تستمد مقوماتها وشرعيتها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وأثبتت أن الشعوبين كانوا جادين في إنشاء سيادتهم الأجنبية المعادية للعرب، وإلى إحياء ديانتهم القديمة كالزردشتية والروانديةوغيرها، أو مزج عقائدهم القديمة ببعض المفاهيم الإسلامية، وأشارت إلى اتخاذ بعضهم الدّين ستارًا للتخريب، ليس هذا وحسب بل أن الحركة الشعوبية اتبعت في بعض وجوهها الزندقة شعارًا لها والمجون والخلاعة هدفًا لتحقيق أغراضها ومراميها، وتطرقت إلى بعض الفرق والحركات الثورية التي سعت إلى السلطة.

واستعرضت الباحثة النهج الذي اتبعه الموالي للطعن في أنساب العرب، وادعو أن هذا النسب يعود إلى ذرية إسماعيل بن هاجر، وقد أطلقوا عليها لقب اللخناء لأنها أمَة ، وعاب الشعوبيون على أسماء العرب مثل كلب وغيره[1]، وفي ذلك تذكر الدكتورة زاهية قدورة أن[2]: "الموالي وضعوا كُتب "المثالب" التي من شأنها أن تظهر مواضع العيوب ونقاط العار في تاريخ ونسب العرب"، فرد العرب بتأليف كتب "الفضائل". فالخطر الذي ولدته الشعوبية لا يكمن فقط في روح الحقد والعنصرية في المجتمع، بل فيما ولدته من شك واستخفاف بالقيم الاجتماعية والتراثية.

وفي المقابل لم تغفل الباحثة الحديث عن التقاء وارتقاء الفكرين العربي والفارسي إلى مستوى التفاعل والتبادل والتفتح والأخذ والعطاء، فقد أعطى العرب دينًا عظيمًا ولغة وثقافة، وأخذوا من الأمم الأخرى علومًا وفنونًا، وعلى هذا النحو فإن الشعوبية حركة متعددة الأغراض والاتجاهات، وهي ثمرة جهد كبير وعمل كثيف لشعوب متعددة الأجناس والثقافات والأهواء، اندفعوا ثأرًا لأقوامهم وتراثهم ظنًا منهم أنهم ضاعوا على يد العرب الفاتحين. وهذه النزعة فقدت فاعليتها أمام مرونة وإنسانية النزعة العربية الإسلامية بصورة تدريجية.

خاتمة واستنتاجات:

يتضح لنا أن الباحثة أجمعت على أن الشعوبية هي تفضيل العجم على العرب وإنكار أي فضل للعرب في تطوير البشرية، وقد بدأت هذه الحركة بعد انتشار الدين الإسلامي، تطورت في العصر الأموي، وظهرت إلى العيان في صورة ثورية فكرية خطيرة في العصر العباسي. والشعوبية لم تكن حزبًا أو حركة منظمة، بل هي نزعة أكثر منها عقيدة، لكنها عمدت إلى إضفاء طابع ديني لترسيخ أفكارها إمعانًا في التضليل، مدعمة مواقفها بالقرآن والأحاديث النبوية الشريفة، فاختارت منها ما يتفق مع نزعتها وغاياتها، كما أنها اتبعت في بعض وجوهها الزندقة شعارًا لها والمجون والخلاعة هدفًا لتحقيق أغراضها ومراميها.

---

(4) هاملتون جب: **دراسات في حضارة الإسلام**، ترجمة د. إحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٧٩م، ص ٨٧.

(1) زهية قدورة: الشعوبية، ص ٩٥.

(2)المرجع نفسه: ص ٩٧.

وبينت الباحثة أن الشعوبية كان لها آثار بعيدة في تاريخ العرب تمثلت في جوانب عديدة من حياتهم، فقد سلك الموالي طرقًا متعددة بين الظاهر والمستور لكل منها أثرها الخاص، وعلى امتداد رقعة جغرافية واسعة، فقد استغل الموالي التدوين أوسع استغلال مؤلفين كُتبًا في تشويه آثار العرب وتاريخهم ودينهم، لزعزعة قاعدة المجتمع وأساسه.

في الختام نستطيع القول، أن الدكتورة زاهية قدورة عالجت هذا الموضوع بطريقة موضوعية، وسلكت في سبيله طريقة البحث العلمي، وأثبتت أن المؤرخ لا يستطيع أن يستخلص أحداث التاريخ من تجاربة وعلومه، وإن تحقيق ذلك، يحتاج إلى دراسة العوامل والظروف والمؤثرات النفسية والاجتماعية والسياسية التي يتطلبها علم التاريخ، لتخرج بنتيجة مفادها أن فكرة القومية سواء في سلبياتها أو إيجابياتها ليست حكرًا على بلد معين، أو شعب معين، بل عرفتها الشعوب القديمة، وعاشتها الأمم الحديثة.